وإن كانت تتكرر على مقربة منا فى فلسطين ولكننا نقول : إننا فى حاجة وقت السلم إلى صفات لا تقل عن الصفات التى تحتاجها الأمة وقت الحرب بل قد تزيد .

٧٤ — إننا فى عصر يتطلب انتزاع النصر فى السلم كما انتزعه أسلافنا فى الحرب ؛ وتحضير هذا يتطلب جمع القوى المشتتة وتنظيمها وتعبئتها ، وهذا التنظيم نوع من الكفاح الدائم المستمر

٧٥ — إنه يتطلب نوعاً من الهدوء والثبات والتركيز ، والاقدام وهى من قبيل الصفات التى تمكن بها أسلافنا من انتزاع النصر فى المعارك التى ذكرتها أو أشرت إليها فى الكلام عن حسن الأكراد ولا أشك فى أن هذه الصفات كامنة فينا وأؤمن أنها ستخرج فى القريب لكى تحقق فى السلم ما يرى الكثيرون أنه بعيد التحقيق وليس فى طاقة شعوب الشرق أن تقوم به ، ولكن وثبتها نحو تحقيق مثلها العليا ستجعل هذا الرأى حقيقة ماثلة للعالم أجمع .

أحمد رمزى

طرائف من العصر المملوكى :

أدب الحرب

للأستاذ محمود رزق سليم

ما أكثر امتلاء العصر المملوكى بالحروب الخارجية ، وما كان أسرع ملوكه وأمراءه إلى تلبية نداتها كلما دعت ، والاستجابة لها كلما أهابت . ومن يتصفح تاريخ هذه الحقبة الفريدة من تاريخ مصر يجد أن جيشها كان يكافح عدوين لدودين طاغيين معتديين ، هما التتار والفرنجة . ولم يكن فى كفاحه متجنياً ولا معتدياً ، وإنما كان يذود عن ممتلكات مصر وأرض المسلمين ومقدساتهم . فلم تكن حروبه حروب أطماع وأهواء ، ولكن حروب دفاع ورد اعتداء . فهى حروب مشروعة لها سند من الدين والعقل والقانون .

أما التتار فكانوا فى بداءة أمرهم وفى جملته ، وثنيين جهلاء ، وضفاكين للدماء . وما دفعهم من أقاصى بلادهم فى آسيا ، إلا حب الفتح والاستعمار . وما أشبههم فى العصر الحديث — لا بألمانيا وحدها — ولكن بكل دولة من تلك الدول الكبرى الفاغرة فاها للشرق وخيرات الشرق تبغى استغلابها والتهامها ، استلاب اللصوص والتهام القطاع . وكان يظن أنهم القوة لا تهزم ، فكفكف المماليك غربهم ، وفلوا سيوفهم ، وردوهم داحرين على أعقابهم فى جملة مواقع حاسمة قاصمة . وزالت بذلك خرافة قوتهم .

أما الفرنجة فقد حركتهم إذ ذاك أطماع استعمارية كذلك ، وشنوا الحروب على سواحل البحر الأبيض الشرقية تحت ستار من المسيحية — والمسيحية الطاهرة منهم براء — وكانت هذه السواحل من شمال البلاد الحلبية إلى الشامية إلى الفلسطينية فى جملة ممتلكات مصر ، يعيش فيها جميعاً شعب واحد متحد المشارب مجتمع الأهواء متجانس المقومات ، له دينه ولغته وجنسه وتقاليده وله مشاعره المتشابهة ومصالحه المشتركة . فذاد عنها سلاطين مصر الأباة ، عارفين للدين حرمته ، وللوطن كرامته ، ودافعوا عنها دفاع المستميت ، لا ونى ولا وجل .

وإلى جانب ذلك كله كانت لهم حروب أخرى بعضها لتأديب أمير شق عصا الطاعة ، أورد عدوان جار من جيرانهم ، أو نحو ذلك . وأبدى كثير منهم سلاطين وأمراء وجنوداً ضروباً من الشجاعة خارقة .

وكانت هذه الحروب — فى كثير من ظروفها — منشطة لشياطين الشعراء والأدباء ، فتابعوا سيرها وتحولاتها ، مستمدين منها الوحى ، مستشعرين الإلهام . فمدحوا الملوك والأمراء الذين أبدوا من ضروب الشجاعة والمهارة ما استحق التخليد ، وكان لأعمالهم أثر مجيد فى الانتصار . وحسوا وفاخروا بما نال جيش مصر من الظفر ، ووصفوا الوقائع ومالابسها من حوادث وما صاحبها من آلات القتال ، كالرماح والسيوف والخيل واللامات ، وسجلوا بذلك كله كثيراً من حوادث أجيالهم ، وشاركوا العصر إلى حد ما فى آلامه وأحلامه .

ولم يقصر الكتاب الناثرون عن إخوانهم الشعراء فى هذا المضمار . فقد كان بمصر حينذاك ديوان من دواوين الدولة خاص

بالكتابة وهو « ديوان الإنشاء » تصدر عنه الرسائل الرسمية الهامة . ويلى أمر الكتابة فيه حذاق المنشئين وبارعوهم . وكان فى جملة الرسائل التى يعنون بكتابتها « البشارات » وهى أنواع ، ومنها : البشارة بانتصارات الجيش على أعدائه ، فيوصف فيها تحرك الجيش واستعداده للاشتباك فى القتال وما يأتيه السلطان أو أعوانه من ضروب المغامرة والشجاعة ، وما يصبونه على عدوهم من أهوال ، وما يصيبونه بعد هذا من نصر وظفر ، إلى غير ذلك . وكانت هذه الرسائل تكتب بعبارة أدبية طريفة مطولة يجرى أسلوبها على الطريقة الفاضلية أو النبانية ، يبدع فيها الكتاب ما شاء لهم الإبداع والفن الكتابى الذى يسلكون سبله . وتنشر هذه الرسائل على الناس أو تتلى فى المجامع . فهى إلى حد ما شبيهة بما يكتبه مراسلو الصحف فى أيامنا ، ممن يصحب الجيوش فى تحركاتها . وذلك لما يسرى فيها من روح أدبية ونزعة عاطفية . ومن هنا تفارق البلاغات الرسمية الحربية التى يذيعها أولو الشأن اليوم عن حركات الجيش فى لطف وإيجاز . ولو استطعنا جمع هذه البشارات كلها لكان لنا منها سجل أدبى رائع عن حروب المماليك وانتصاراتهم .

وقد روى أن الظاهر بيبرس سلطان مصر غزا فى الشام ، واستطاع بجيشه المصرى أن يوقع بالتتار ويذل الفرنجة ويفتح المدن المنيعة ويدك الحصون المستعصية . وقد شارك جنوده وعماله بيده فى أداء أعمالهم ، وأظهر خوارق من المغامرات . ولما فتح قيسارية — وكانت من قلاع الفرنجة ومدنهم الحصينة — كشف بلادها وقوّم خراجها ، ووزع ذلك كله على أمرائه الذين شاركوه فى جهاده . وكتب بذلك « مكتوب جامع بالتمليك » وهو ضرب آخر من الرسائل الرسمية . وقد جاء فى مطالعه بعد الحمد والصلاة ما يلى فى وصف الانتصار :

« إن خير النعمة نعمة وردت بعد الياس ، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس . فأكرم بها نعمة وصلت للأمة المحمدية أسبابا ، وفتحت للفتوحات الإسلامية أبوابا . وهزمت من التتار والفرنج العدوين ، وربطت من الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين . وجعلت عساكر الإسلام تذل الفرنج بغزوهم فى عقر الدار ، وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والأمصار . وتقود من فضل عن شبع السيف الساغب إلى حلقات الإسار . ففرقة منهم تقتلع للفرنج قلاعاً وتهدم حصوناً ، وفرقة تبنى ما هدم التتار بالشرق وتعليه تحصيناً . وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعاً شاهقة ، وتتسنم هضاباً سامقة ، فهى بحمد الله الباقية الهادمة ، والقاصمة الراغمة . كل ذلك بمن أقامه الله وجرده سيفاً فغرى ، وحملت رياح النصرة ركابه تسخيراً فسار إلى مواطن الظفر وسرى . وكونته السعادة ملكا إذا رأته فى دستها قالت تعظيما له ما هذا بشرا ... » إلى آخر هذا المكتوب .

وقد نظم أديب عصره وشاعره محيى الدين بن عبد الظاهر ، هذه الأبيات يصف فيها جنود مصر ومغامرات بيبرس فى حرب التتار ، فقال :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة ... وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا
وجاءوا إلى شط الفرات ومادروا ... بأن جياد الخيل تقطعه وثبا
وجاءت جنود الله فى العدد التى ... تحيس لها الأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد سباحة ... إليهم فما استطاع العدو له نقبا

واعتقادنا أن هذه الأبيات بقايا قصيدة طويلة بارعة للقاضى محيى الدين . وهى تحدثنا فى طلاقة ووضوح بما كان ثم من شجاعة بيبرس وجنوده . فإنه خاض نهر الفرات بنفسه للقاء التتار على شاطئه الآخر ، فاندفع جنوده فى إثره خائضين ، فدحروا العدو وشتتوا شمله . وفى البيت الثالث يصف الشاعر الجنود بأنها جنود الله ، وفى ذلك دلالة على عقيدتهم فى أنهم إنما يخرجون للجهاد فى سبيل الله وحماية دينه . وقد أبدع الشاعر فى البيت الرابع إذ يقول « فعمنا بسد من حديد » كناية عما يلبسون من درع وعما يحملون من سلاح ، وعما لهم من كثرة ، وعما فيهم من جرأة . وهذه أهم أدوات النصر ، وقد انتصروا فعلا ، فإن العدو لم يستطع لهذا السد العظيم نقباً ، وفى العبارة الأخيرة شىء من الاقتباس وفيه إشعار بتشبيه سدهم هذا بسد ذى القرنين .

وقد نظم الشاعر بدر الدين يوسف بن المهمندار فى نفس الواقعة أبياتاً بديعة دقيقة الوصف رائعة التصوير تفيض بالمجد وتوحى بالفخار وتسجل عظمة أولئك الأسلاف الصيد الغضافر الصناديد : ومن هذه الأبيات قوله :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا والخيل تطفح فى العجاج الأكدر
وقد اطلخم الأمر واحتدم الوغى ووهى الجبان وساء ظن المجترى
لرأيت سدا من حديد ما يرى فوق الفرات وفوقه نار تُرى

ومنها :

ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى ومن الفوارس أبحرا فى أبحر
لما سبقنا أسهما طاشت لنا منهم إلينا بالخيول الضمر
لم يفتحوا للرى منهم أعينا حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هربا ولكن ردّهم دون الهزيمة ربع كل غضنفر

وانظر حسن التعليل ، أو توكيد المدح بما يشبه الذم ، فى قوله :

ما كان أجرى خيلنا فى إثرهم لو أنها برءوسهم لم تعثر

ومنها :

وجرت دماؤهم على وجه الثرى حتى جرت منها مجارى الأنهر
والظاهر السلطان فى آثارهم يذرى الرءوس بكل عضب أبتر
ذهب الغبار مع النجيع بصقله فكأنه فى غمده لم يشهر

ومن سلاطين مصر الأشرف خليل بن قلاوون . وقد حارب كذلك فى بلاد الشام وفتح مدينة « عكا » الحصينة بعد أن رماها بالمنجنيق وهدم سورها وقلعتها . وكانت بيد الفرنجة . فمدحه القاضى شهاب الدين محمود الحلبى بقصيدة بائية فى نحو خمسة وستين بيتاً . قال فى مطلعها :

الحمد لله ذلت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربى
هـــذا الذى كانت الآمال لو طلبت رؤياه فى النوم لا ستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها فى البحر للشرك عند البر من أرب
عقيـــلة ذهبت أيدى الخطوب بها دهراً وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر مذ خربت فى البحر والبر ما ينجي سوى الهرب
كانت تخيلنا آمالنا فترى أن التفكر فيها غاية العجب
أما الحروب فكم قد أنشأت فتنا شاب الوليد بها هو لا ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها دارا وأدناها أنأى من العطب
مصفح بصفاح حولها أكم من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمائم تهدى من سوافقها بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فلك من المجانيق ترمى الأرض بالشهب
ففاجأتها جنـود الله يقدمها غضبان لله لا للملك والنشب
كم رامها ورماها قبله ملك جم الجيوش فلم يظفر ولم يجب
لم ترض همته إلا الذى قعدت للعجز عنه ملوك العجم والعرب

ثم أخذ الشاعر فى مدح السلطان ثم وصف جيشه ووصف الحرب منوها بالأغراض التوخاة منها ، إلى غير ذلك من الأغراض الشعرية .

وفى عام ٦٩١ هـ فتح السلطان الأشرف خليل قلعة الروم ، فهنأه شاعره هذا وهو القاضى محمود الحلبى بقصيدة رائية على نمط القصيدة السالفة فى الروعة ودقة الوصف وجمال التصوير ووضوح المعنى . وقد بدأها بوصف راية السلطان وهى صفراء اللون ، فكان له من اصفرارها مدد جميل لوصفه قال :

لك الراية الصفراء يقدمها النصر فمن كيقباذ إن رآها وكيخسرو
إذا خفقت فى الأرض تهدى بنورها هوى الشرك واستملى الهدى وانجلى الغمر
وإن نشرت مثل الأصائل فى وغى جلا النقع من لألاء ظلمتها البدر
وإن يممت زرق المدى سار تحتها كتائب خضر تحتها البيض والسمر
كأن مثار النقع ليل وخفقها بروق وأنت البدر والفلك والبحر
لها كل يوم أين سار لواؤها هدية تقليد يقدمها الدهر
وفتح بدا فى إثر فتح كأنما سماء بدت تترى كواكبها الزهر
فكم وطئت طوعا وكرها مماقل مضى الدهر عنها وهى عانسة بكر

وكان الأديب ابن حجة الحموى من خلصان سلطان مصر الملك المؤيد شيخ المحمودى اتصل به قبل سلطنته أيام أن كان أميراً فى بلاد الشام ، وقدم إلى مصر بعد سلطنته وأقام فى خدمته ردحا . وكان المؤيد قبل سلطنته قد وقعت فتن بينه وبين سلطان مصر حينذاك الناصر فرج بن برقوق . فانهزم فرج أمامه فى ضيعة من ضياع الشام اسمها « اللجون » فكان ذلك مثاراً لشاعرية ابن حجة إذ مدح المؤيد وذكر المعركة ووصف ما دار فيها موفقا فى كثير من أبياته . فقال يخاطب المؤيد :

يا حامى الحرمين والأقصى ومن لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر هـذا وما فى العالمين مناظر

فرج على «اللجون» نظم عسكرا وأطاعه فى النظم بحر وافر
فأبنت منه زحافه فى وقفة يا من بأحوال الوقائع شاعر
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة فكأن هاتيك السروج مقابر

ومنها :

وإذا مددت يراع رمحك ماله إلا قلوب الدارعين محابر
ونعال خيلك كالعيون ومالها إلا جماجم من قتلت محاجر

ويعتبر القتال بين السلطان فرج وأميره شيخ حربا أهلية إذ أن كليهما من رجال الطبقة الحاكمة المصرية حينذاك وما كان أكثر الحروب الأهلية ووقائعها فى هذا العصر !

ويطول بنا المقال لو استرسلنا فى الحديث . غير أننا نختتمه بأن نذكر أن الرجالين كانوا فى عداد الأدباء عناية بذكر الوقائع ووصف الحروب ، وأن الشعراء طرقوا فى باب الوصف ، السيوف والرماح ونحوها من آلات القتال ، ومنهم من أخرج غزله عن حماسيا ، فاستعار لأدواته وملابساته ما للحرب من أدو وملابسات . — ومن لطيف ما يروى أن الأمير « الـ الجوبانى » الذى كان نائبا عن سلطان مصر فى كفالة الشا زمنا دعا فضلاء الأدباء لكى ينظموا أبياتا تكتب على أسنة الرما وعددها أربعة . فتبارى فى ذلك كثيرون . ومنهم فتح الـ ابن الشهيد فقال على لسان الرمح :

إذا الغبار علا فى الجو عثيره فأظلم الجو ما للشمس أ
هذا سنانى نجم يستضاء به كأننى علم فى رأسه
والسيف إن نام ملء الجفن فى علق فإننى بارز للحرب خط
إن الرماح لأغصان وليس لها سوى النجوم على العيدان أز

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة الـ

ظهر حديثاً :

أعنف ثورة على الرق الانسانى

الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل

فى ديوانه الجديد

أين المفر

أقرب طريق إلى سر المرأة ،
وسحر الطبيعة ، وعذاب الأغلال

توزيع دار الكتب الأهلية بميدان الأوبرا

طباعة نادرة وعدد النسخ محدود

ر الثمن ٢٥ قرشاً عدا البريد

وزارة المعارف العمومية

إعلان مناقصة

تقدم العطاءات بعنوان حضرة صاحب العزة وكيل المعارف المساعد بشارع الفلكى بمصر أو بالبريد الموصى عليه أو بوضعها باليد بمعرفة مقدميها فى داخل الصندوق المخصص لذلك فى إدارة المحفوظات بالوزارة لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ١٠/٧/١٩٤٨ عن توريد خامات الأعمال الصحية والسكرة اللازمة للمدارس الصناعية فى عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ .

ويمكن الحصول على شروط وقائمة المناقصة المذكورة من إدارة التوريدات بشارع صفية زغلول بمصر نظير مبلغ ٢٠٠ مليم

٩٥٤٣